علم محاسن النظم عند جارالله الزمخشري- الاتساق والتجاوب في بناء النص القرآنيّ

the science of the beauties of coordination
Consistency and responsiveness in the Qur'anic text

المؤلف: الدكتورة جميلة قوجيل
جامعة لونيسي علي بالبليدة 2-
قسم اللغة العربية آدابها
كلية الأدب واللغات
البريد الإلكتروني dj.goudjil@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/05/13 تاريخ القبول:. 2020/02/27

ملخص المقال:

تُوِّجَتْ مرحلة البحث عن الجماليّة القرآنيّة التي أعجزت أهل البيان والبلاغة من العرب برؤية محايثة للنصّ غير مفارقة له تخالف ما ذهب إليه القائلون بالصرفة تمثّلت في نظريّة النّظم، وهي ثمرة دراسات الإعجاز عند عبد القاهر الجرجاني ومن سبقه من الدّارسين. هذه الرّؤية التّي عمل الجرجاني على بسطها والتّدليل عليها، ولكنّه اقتصر في تطبيقاته على بعض الآيات القرآنيّة ليستحوذ الشّعر على الحيّز الأوفر.

اضطلع جار الله الزمخشري في الكشّاف بتطبيق هذه النظرية على آيات الذّكر الحكيم متجاوزا نظم الجملة إلى نظم النص من خلال ما أطلق عليه علم محاسن النّظم، وهو علم ظهرت فيه فاعليّة السياق في توجيه المعنى حيث تأخذ الجمل بأعناق بعض ويظهر اتّساقها وتجاوبها في نظرة كليّة للنصّ القرآنيّ، يسعى البحث لبسطها وتبيانها وجها من أوجه الإعجاز.

الكلمات المفاتيح: علم محاسن النظم، الزمخشري، الاتساق، التجاوب، النص القرآني.

***ABSTRACT*:**

The theory of coordination is the culmination of previous studies that examined the Qur'anic aesthetics. Jarallah al-Zamakhshari tried to apply his theory to the Koran, bypassing the sentence systems to the textual systems through what he called the science of the beauties of coordination, a science in which the effectiveness of the context in directing the meaning, where the sentences take each other and shows their consistency in the overall view of the Koranic text. Which is what this research seeks to describe and disclose its details.

Keywords: The theory of coordination, Jarallah al-Zamakhshari, consistency, responsiveness.

مقدمة:

رغم ما يعرف عن أبي القاسم محمود جار الله الزمخشري (467 - 538ه) من آرائه الاعتزالية المبثوثة في الكشاف إلاّ أنّ ذلك لم ينقص من القيمة البلاغيّة لهذا المؤلَّف ودوره في الكشف عن إعجاز نظم القرآن، وهذا ما شهد به أهل السنة والجماعة رغم معارضتهم الشديدة له وتحذيرهم من هذه الآراء فـ "...كانوا مع هذه المعارضة القويّة يشهدون للزمخشري بطول الباع ونفاذ البصر والتّبحّر في جميع العلوم وتميّزه بلطائف المحاورة ونفائس المحاضرة "[1].كما بيّن ابن خلدون في المقدمة في سياق حديثه عن علم البيان فضل الكشّاف على بقية التفاسير في انفراده بأحكام هذا الفنّ، لذا يدعو من لا يخشى ما جاء فيه من بدع وأهواء أهل الاعتزال أن ينظر فيه ليظفر بلطائفه الإعجازيّة[2].

يعزى إلى الزمخشريّ بسط نظرية النظم الجرجانية وإتمام ما توقّف عنده هذا الأشعريّ الذي تحدّث عن توخي معاني النحو في معاني الكلم، فلم يكن الكشف عن العلاقات الإسنادية هدفه في تفسيره وإنّما النظم المخصوص الذي يتجلّى في آي الذكر الحكيم باعتباره أرقى درجات البلاغة، وليس النظم عند أوساط النّاس وحتّى بلغائهم.

نتج عن الاهتمام بالأسلوب القرآني عند الزمخشري ما سمّاه " علم محاسن النظم" في رؤية جماليّة لارتباط الآي وأخذها بحجز بعض كأنّما أفرغت إفراغا واحدا في رؤية تتجاوز الجملة إلى نظرة كليّة للنصّ في ظلّ القراءة السياقيّة. هذا ما يحاول البحث تناوله متسائلا عن مفهوم علم محاسن النظم في الكشّاف وتمظهراته في النظرة إلى النص القرآني؟ وما هو التجاوب والاتساق في منظوره ودورهما في بناء النص ؟

نسعى للإجابة عن هذه التساؤلات وفق آليات الوصف والتحليل من خلال تناول مفهوم علم محاسن النظم عند الزمخشري الذي يعدّه أمّ إعجاز القرآن ثمّ التثنية بمظهر من مظاهر هذا العلم بل جوهره وهو الاتّساق والتّجاوب وسنوضح هذا الرؤية من خلال نماذج من الذكر الحكيم في رؤية كليّة للنص المعجز.

وتمكن أهميّة الموضوع في التعريف بهذا العلم الذي بسطه الزمخشريّ في تفسيره وتبيان مفاهيمه التي مثّلت رؤية هذا المفسّر للإعجاز وهي مفاهيم نصيّة تقوم على الاشتغال على النصّ ككلّ لا الجملة ممّا قامت عليه لسانيات النص اليوم. وإن عرفت نظرية النظم في دراسات الإعجاز والبلاغة والنقد عند الأوائل والمتأخّرين فإن علم محاسن النظم لم يحظ بهذا الاهتمام لذا يحاول هذا البحث بسطه وتبيانه باعتباره وجها هامّا من أوجه إعجازه.

-مفهوم علم محاسن النظم:

اتّخذ صاحب الكشّاف التّفسير مطيّة إلى التّدليل على الإعجاز وإظهار اللّطائف التّي لا يراها إلاّ خاصّة العلماء، وكانت آلتاه في ذلك علم المعاني وعلم البيان اللّذين يصبّان في علم النّظم أو علم محاسن النّظم. ويسند للنّظم القدرة على إبراز غوامض التّنزيل الأسلوبيّة " وهذه الأسرار والنّكت لا يبرزها إلاّ علم النّظم، وإلاّ بقيت محتجبة في أكمامها " [3]. وهو العدّة التّي على المفسّر أن يتسلّح بها للكشف عن الإعجاز، وهو في ذلك متأثّر بالجرجاني، آخذ بإرثه، فقد أثمرت التّربيّة الفنيّة التّي أسّسها من خلال الدّلائل والأسرار في كشّاف الزّمخشري بما حواه من عناية بلطائف أسلوب القرآن ودقائقه [4]. وإن لم يصرّح بذلك في تفسيره، وإنّما أتى على ذكره في موضع وحيد أظهر فيه إعجابه ببيت شعريّ يخاطب فيه متعلّما عنه حاضر الجسد غائب الذّهن، ساقه وهو بصدد تفسير

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [5]. يقول الزّمخشري: " وإلقاء السّمع: الإصغاء وهو شهيد أي حاضر بفطنته، لأنّ من لا يحضر ذهنه فكأنّه غائب، وقد ملح الإمام عبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه:

ما شئت من زهزهة والفتى بمصقلاباذ لسقيّ الزّروع " [6]

ولكنّ صفحات الكشّاف لا تحتاج إلى تصريح على تطبيقه لنظريّة النّظم الجرجانيّة على آي القرآن، لذلك فعمله مؤكِّد ومتمّم لما بدأه فـ"... كأنّما تجمّعت في صدره جميع أماني المعتزلة والأشعريّة في تصوير بلاغة القرآن المعجزة " [7].

يخلص الزمخشري بفطنته إلى أنّ المزيّة ليست في هذه العلاقات التّركيبيّة من تعلّق بين الاسم والفعل والحرف، وما يتفرّع عن هذا التّعالق، ولا في المعاني البلاغيّة النّاتجة عن التّقديم والتّأخير والفصل والوصل والحذف والذكر وغيرها لأنّها مدار كلام العرب وسنّتهم في القول،لذا أسّس لمرحلة هامّة من مراحل التّدليل على الإعجاز، وقراءة النصّ عموما من خلال النّظم المخصوص والتّواشج والغرابة. وهي القطاف الذي أينع على يد الزّمخشريّ، فكان هذا التّفسير الذي لم يسبق إليه.

إنّ الملفت للانتباه بتتبّع مصطلح النّظم في الأجزاء الأربع للكشّاف عدم حديثه عن مجرّد النّظم الذي انشغل الجرجانيّ بإثباته وتبيان ماهيّته وإقناع المتلقّي به، وإنّما قرن المصطلح بصفات إيجابيّة حينا هي سمّة القرآن، متمثّلة في: النّظم المتجاوب والسَرِيُّ[8]، الاتّساق والالتئام، والحسن، المعجز، المطبوع غير المتكلّف، الغرابة والجزالة [9]. وهي قمّة وخلاصة استقصاء الجرجانيّ للأساليب العربيّة، ومكمن الإعجاز الذي لم يتمكّن من التّدليل عليه في القرآن، والذي اضطلع به الزّمخشريّ فيما سمّاه علم محاسن النّظم[10]. كما قرن النّظم حينا آخر بصفات سلبيّة تمثّل الاحتمال الآخر الذي يفترضه وهو بصدد مناقشته أسلوب القرآن وهي: التّنافر، الفكّ، التّبتير، الفساد والتّفاوت[11].

يتجاوز مفهوم الزّمخشريّ للنّظم ما يقابل النّثر، إذ التّفرّق هو سمة النثر. أمّا النّظم في الأصل اللّغويّ، فهو لجمع الجواهر كما ذكر الجرجانيّ في الأسرار[12]. وإنّما يقصد صاحب الكشّاف النّظم المحكم المتجاوب، وهو الطّرح الذي قدّمه الجرجانيّ عندما استدلّ بكلام الجاحظ الذي راعى فيه مجرّد منع التّفرّق، لا دقّة الصّنع وجمال النّظم: " اعلم أنّ من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبّرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر ورويّة حتّى انتظم، بل ترى سبيله في ضمّ بعضه إلى بعض، سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك، لا يبغي أكثر من أن يمنعها التّفرّق، وكمن نضد أشياء بعضها على بعض، لا يريد في نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة، بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين " [13]. وإنّما في اتّحاد أجزاء الكلام ودقّة صنعه وشدّة تشابكه المزيّة والفضيلة ويطلق الجرجاني على هذا الضرب من الكلام النّمط العالي والباب الأعظم. وقد عقد له فصلا سمّاه " في النّظم يتّحد في الوضع، ويدقّ فيه الصّنع " [14].

إنّ هذا النّمط العالي هو ما اشتغل عليه الزّمخشريّ في كشّافه، ساعيّا للكشف عن الجماليّة من خلال التّجاوب والتّلاؤم في النّظم، متجاوزا عمل النّحويّ الذي يقف عند العلاقات الإسناديّة إلى جمال المعاني

البلاغيّة. وهو ما أبدته تحليلاته لكثير من آي القرآن الكريم كوقوفه عند الآيات الأربع الأولى من سورة البقرة. فبعد أن بيّن المحلّ الإعرابيّ لهذه الجمل في علاقة بعضها ببعض، ووظيفتها النّحويّة، ضرب صفحا عن ذلك إلى ما هو أشرف وأبلغ " والذي هو أرسخ عرقا في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحا، وأن يقال إنّ قوله:" ألم " جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلّة بنفسها، و" ذلك الكتاب " جملة ثانيّة، و" لا ريب فيه " ثالثة، و"هدى للمتّقين " رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النّظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض. فالثانيّة متّحدة بالأولى معتنقة لها وهلمّ جرا إلى الثالثة والرّابعة " [15].

يقوم حسن النّظم - حسب ما يظهره القول - على تناسق وتآخي الجمل واتّحادها، وهو مع ذلك لا يقف عند هذا الحدّ بل يتدرّج إلى تبيان مواطن الجمال فيها في قوله: "... ثمّ لم تخل كلّ واحدة من الأربع، بعد أن رتّبت هذا التّرتيب الأنيق، ونظمت هذا النّظم السريّ، من نكتة ذات جزالة، ففي الأولى الحذف والرّمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه. وفي الثّانيّة ما في التّعريف من الفخامة. وفي الثّالثة ما في تقديم الرّيب على الظرف. وفي الرابعة الحذف ووضع المصدر الذي هو" هدى " موضع الوصف الذي هو " هاد " وإيراده منكرا والإيجاز في ذكر المتّقين... " [16].

يُعلي الزّمخشري من شأن الاتّساق والتّجاوب في النّظم، فيجعله شرطا أساسا على المفسّر أن يراعيه في ترجيح تفسير على آخر، فعن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ۞ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ۞ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [17]. يناقش مسألة الضّمائر في هذه الآيات مرجّحا كفّة اتّساق النّظم فيما يذهب إليه من تفسير في قوله: "... والضّمائر كلّها راجعة إلى موسى. ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التّابوت فيه هجنة، لما يؤدّي إليه من تنافر النّظم. فإن قلت: المقذوف في البحر هو التّابوت، وكذلك الملقى إلى السّاحل. قلت: ما ضرّك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التّابوت، حتّى لا تفرق الضّمائر فيتنافر عليك النّظم الذي هو أمّ إعجاز القرآن... " [18].

وتبلغ أهميّة الالتئام والتّجاوب درجة أن يرجّح بمقتضاه قراءة على أخرى [19]، يظهر ذلك في تناوله لقوله تعالى: ﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[20]، مرجّحا هذه القراءة على قراءة كان التّامة: ذو قربى، " قلت: نظم الكلام أحسن ملاءمة للنّاقصة، لأنّ المعنى على أنّ المثقلة إن دعت أحدا إلى حملها لا يحمل منه شيء، وإن كان مدعوّها ذا قربى وهو معنى صحيح ملتئم، ولو قلت: لو وجد ذو قربى، لتفكّك وخرج من اتّساقه والتئامه... " [21].

إنّ انشغال الزّمخشري بهذه اللّطائف والأسرار في الأسلوب القرآنيّ عناية منه بالمنحى الجماليّ في قراءة النّصّ "... تعينه في ذلك بصيرة نافذة تتغلغل في مسالك التّنزيل وتكشف عن خفاياه ودقائقه، كما يعينه ذوق أدبيّ مرهف يقيس الجمال البلاغيّ قياسا دقيقا وما يطوى فيه من كمال وجلال " [22]. وقد أبدى في تحليلاته إعجابه وتأثره إذ قال: " وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم " [23].

وفي الآيات الكريمة من قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ۞ وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ ۞ مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ۞ وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [24] بعد تبيانه لمعاني الألفاظ ووجه استخدامها في هذه المواقع أوضح معاني الجمل وحسن ترتيبها حيث قال[25]:" والمعنى: ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال: صنع الله، يريد به: الإثابة والمعاقبة. وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب، حيث قال: صنع الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ يعني أنّ مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب: من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها، وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه، فيكافئهم على حسب ذلك. ثم لخص ذلك بقوله مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ إلى آخر الآيتين، فانظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماده، ورصانة تفسيره، وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغا واحدا ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق " [26]،مدركا لتنامي هذه المعاني في هذه الآيات، داعيا إلى النّظر إلى هذا الجمال ومؤسّسا للمقياس الجماليّ في تناول النّصوص.

قام مفهوم النّظم في منظور جار الله على رؤية جماليّة، متّخذا نظم الجرجاني متّكأه، ليكشف عن غوامض آي الذكر الحكيم، ممّا لم يتسنّ لعبد القاهر، لذا أسسّ لعلم محاسن النّظم، هذا العلم الذي قوامه التّجاوب والاتّساق، وهذا ما يتجلّى للنّاظر في تفسيره، وسنبيّنه من خلال بعض النماذج في القرآن الكريم في رؤية لمظاهر هذا التجاوب.

-التجاوب والاتساق في بناء النص القرآني:

قاد ذوق الزّمخشريّ الجماليّ وعلمه باللّغة صاحبه إلى تتبّع الدّقائق واللّطائف الأسلوبيّة في سور القرآن، كاشفا من خلالها عن مواطن الجمال، وهو في ذلك يستخدم منهجا حواريّا يقيمه مع القارئ ضمن لازمة " فإنْ قلتَ:... قلتُ:... ". إذ يفترض قارئا ذوّاقة يشدّ انتباهه – كما شدّ انتباه الزّمخشري قبله – العدول الجماليّ على مستويّات متعدّدة، ولكنّه لا يعلم له علّة أو دلالة أو وظيفة في البناء الكليّ للنّصّ، فيجيب عنه صاحب الكشّاف مؤسّسا لدى كلّ قارئ حسّا جماليّا قائما على علل عقليّة تستند إلى أسس بلاغيّة من خلال علمي المعاني والبيان اللّذين يميطان اللّثام عن علم محاسن النّظم. وهنا يتجلّى عماد من أعمدة هذا التّفسير وهو القراءة الجماليّة للنصّ المعلّلة لا القائمة على مجرّد الذّوق.

يُعنى هذا التّفسير بعرض المعاني ونمو الفكرة في النصّ وتطوّرها، متجاوزا حدود الجملة إلى مجموع الجمل ومستوى القصّة الواحدة ومجموع القصص في السّورة. وقد تبلغ هذه النّظرة الكليّة القرآن ككلّ فيما يعرضه من مقامات في القصّة الواحدة. وقد أبرزت هذا الانشغال ظواهرُ تجلّت في نظم مجموع الجمل، كشف عنها الزّمخشريّ تتمثّل في:

- الإجمال ثمّ التفصيل.
- التّرتيب.

– التّكرار.

أمّا الإجمال ثمّ التّفصيل فيظهر في قوله تعالى في قصّة موسى عليه السّلام: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۞قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۞ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [27]. يلتفت الزّمخشريّ إلى العلاقة بين هذه الآيات التّي تقوم على التّراكيب المفصول بينها نحويّا في مقام حوار تبتدئ فيه كلّ آية بالفعل: قال.

يبيّن الواصل بينها وبين الآية السّابقة لها المتمثّلة في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [28]، فيجيب عن التّساؤل الذي قد يرد في ذهن القارئ: " فإن قلت: ذكر السّماوات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلّها، فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب ؟ قلت: قد عمّم ثمّ خصّص من العام للبيان أنفسهم وآبائهم، لأنّ أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه من ولد منه، وما شاهد وعاين من الدّلائل على الصّانع، والنّاقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته، ثمّ خصّص المشرق والمغرب، لأنّ طلوع الشّمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السّنة وحساب مستو من أظهر ما استدلّ به ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله، عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمرود بن كنعان، فبهت الذي كفر " [29]. ونلحظ نظرته الكليّة للقرآن في التّدليل على قوّة الاحتجاج بالمشرق والمغرب في قصّة موسى وكذا قصّة إبراهيم عليهما السّلام، بعد أن لم تُجد حجّة الإحياء والإماتة.

لقد كانت ظاهرة التّعميم ثمّ التّخصيص زيادة في الدّلالة ومبالغة في التّنبيه في الآيات الكريمات:

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [30]. جاء في الكشّاف: " بالغ في تنبيههم على نعم الله، حيث أجملها ثمّ فصّلها مستشهدا بعلمهم، وذلك أنّه أيقظهم عن سنّة غفلتهم عنها حين قال أمدّكم بما تعلمون ثمّ عدّدها عليهم وعرّفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته، وأنّه كما قدر أن يتفضّل عليكم بهذه النّعمة، فهو قادر على الثّواب والعقاب، فاتّقوه " [31].

وفي قوله تعالى في قصّة صالح عليه السّلام: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [32] إجمال بوصف حالهم الآمنة يليه تفصيل بذكر الجنّات والعيون ثمّ تفريع الجنّات إلى الزّروع والنّخل، يفسّره الزّمخشري قائلا: " أتتركون يجوز أن يكون إنكارا لأن يتركوا مخلّدين في نعيمهم لا يُزالون عنه، وأن يكون تذكيرا بالنّعمة في تخليّة الله إيّاهم وما يتنعمون فيه من الجنّات وغير ذلك، مع الأمن والدّعة في ما هاهنا في الذي استقرّ في هذا المكان من النّعيم، ثمّ فسّره بقوله في جنّات وعيون وهذا أيضا إجمال ثمّ تفصيل ".

كما يكشف عن دلالة هذه الظاهرة في ذكره تعالى النّخل بعد الزروع: " فإن قلت: لم قال ونخل بعد قوله: في جنّات والجنّة تتناول النّخل أوّل شيء، كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج، حتّى أنّهم ليذكرون الجنّة ولا يقصدون إلاّ النّخيل، كما يذكرون النّعم ولا يريدون إلاّ الإبل... قلت: فيه وجهان: أن يخصّ النّخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشّجر، تنبيها على أن يعطف بها النّخل... فذكّرهم نعمة الله في أن وهب لهم أجود

النّخل وأنفعه... ويجوز أن يريد أنّ نخيلهم أصابت جودة المنابت وسعة الماء، وسلمت من العاهات، فحملت الحمل الكثير، وإذا كثر الحمل هضم [33]، وإذا قلّ جاء فاخرا " [34].

أمّا التّرتيب فقد بيّن كيف تترتب المعاني وتختلف الأغراض في قوله عزّ وعلا: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۞ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ [35] قائلا: " فإن قلت: كيف خولف بين الألفاظ و الغرض واحد، وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء ؟ قلت: إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض،كأنه قيل: حين أعرضوا عن الذكر فقد كذّبوا به، وحين كذّبوا به فقد خفّ عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية،لأنّ من كان قابلا للحق مقبلا عليه، كان مصدّقا به لا محالة ولم يظنّ به التكذيب. ومن كان مصدّقا به، كان موقّرا له فسيأتيهم وعيد لهم وإنذار بأنّهم سيعلمون إذا مسّهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ما الشيء الذي كانوا يستهزؤون به وهو القرآن، وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التي كانت خافية عليهم "[36].

كما يبدي إعجابه بحسن ترتيب القصّة كاملة في امتدادها عبر اثنين وثلاثين آية [37] في مخاطبة إبراهيم عليه السّلام لقومه: " وما أحسن ما رتّب إبراهيم عليه السّلام كلامه مع المشركين، حين سألهم أوّلا عمّا يعبدون سؤال مقرّر لا مستفهم، ثمّ أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنّها لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا أن يكون حجّة، ثمّ صوّر المسألة في نفسه دونهم حتّى تخلّص منها إلى ذكر الله عزّ وعلا، فعظّم شأنه وعدّد نعمته، من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ثمّ أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين، ثمّ وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من النّدم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنّي الكرّة إلى الدّنيا ليؤمنوا ويطيعوا " [38].

تجاوز جار الله في هذا النصّ المطوّل العلاقات الإسناديّة على صعيد الجملة الواحدة، وتتبُّعَه لمواقع الجمل بعضها من بعض إلى بناء القصّة من حيث ترتيب معانيها، وهو تجلٍّ من تجليّات نظرته الكليّة، مستشعرا الجمال فيه. وبذلك انتقل من مباحث علم المعاني البلاغيّة من فصل ووصل وتقديم وتأخير... إلى نموّ المعنى وترتيبه وهو "... أصل مهمّ في مفهوم النصّ، فيحدّثنا عن نموّ الفكرة وتصاعدها، والمعاني التّي يتولّد بعضها من بعض، ويهيّء بعضها لبعض حتّى كأنّ السابق منها بساط للاحقه، ووطاء لذكره... " [39].

كما يمثّل التكرار تجليّا من تجليّات نظرته الكليّة في سياق علم محاسن النظم في ظلّ الاتّساق والتّجاوب حيث بيّن دلالة تكرار الآية الكريمة: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [40] مرّتين في قصة نوح عليه السلام قائلا: " كرّره ليؤكّده عليهم ويقرّره في نفوسهم , مع تعليق كلّ واحدة منهما بعلّة جعل علّة الأوّل كونه أمينا فيما بينهم، وفي الثاني حسم طمعه عنهم " [41].

كما عقّب على التّكرار كظاهرة عامة بعد أن فرغ من تفسيره لقصة سيّدنا شعيب عليه السلام آخر القصص ترتيبا على طريقته الحوارية ووفق اللاّزمة التي عهدها القارئ في الكشّاف مبرزا التّشابه الذي اختصّت به سورة الشّعراء:" فإن قلت: كيف كرّر في هذه السّورة في أوّل كلّ قصة وآخرها ما كرّر؟ قلت: كلّ قصّة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها , فكانت كلّ واحدة منها تدلي بحقّ في أن تفتتح بما افتتحت صاحبتها ,

وأن تختتم بم اختتمت به , ولأنّ في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس وتثبيتا لها في الصدور. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها , وكلّما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذّكر وأبعد عن النسيان، ولأنّ هذه القصص طرقت به آذان وقرعن الإنصات للحق , وقلوب غلق عن تدبره , فكوثرت بالوعظ والتذكير , وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا , أو يفتق ذهنا أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل , أو يجلوا فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ " [42].

يظهر جار الله تشابه القصص في هذه الملاحظة العامة موضّحا أنّه رغم استقلاليّة كلّ قصّة بذاتها، إلاّ أنّها تتشابه وظيفيّا من حيث العبرة التّي تفهم منها، كما تتشابه فواتحها وخواتمها. والغرض من هذا التّكرار والتّشابه تثبيتها وحفظها في الأذهان والصّدور كما تحفظ العلوم. ولم ينبّه في تفسيره للسّورة على محل الاختلاف بينها وتميّز كلّ قصّة عن الأخرى عدا ذكره لاختلاف فاتحة قصّة شعيب من حيث غياب كلمة " أخوهم " مع حضورها فيما تبقّى من قصص معلّلا أنّه لم يكن من أصحاب أيكة [43].

ويجعل الزمخشري من التكرار دليلا على شدّة النفيّ والكراهيّة: " فإن قلت: وإنّه لتنزيل رب العالمين، وما تنزّلت به الشيّاطين، هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين لم فرّق بينهنّ وهنّ أخوات ؟ قلت: أريد التفريق بينهنّ بآيات ليست في معناهنّ ليرجع إلى المجيء بهنّ وتطريّة ذكر ما فيهن كرة بعد كرة، فيدلّ بذلك على أن المعنى الذي نزلت فيه من المعاني التي اشتدّت كراهة الله لخلافها. ومثاله: أن يحدّث الرّجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية، فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه " [44].

ومن بين ما يعنى به هذا التّفسير تناسب المعاني وانسجامها في مواضع كثيرة من السورة كالفواصل القرآنية بين قوله تعالى على لسان سيّدنا موسى عليه السلام في دعوته لفرعون وتعريفه بربّ العالمين: ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [45] وجوابه بعد اتّهامه بالجنون: ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [46]. فيلحظ هذا الفرق الدقيق بين أواخر الآيتين متسائلا: " فإن قلت: كيف قال أوّلا إن كنتم موقنين و آخرا إن كنتم تعقلون؟ قلت: لاين أوّلا , فلما رأى منهم شدّة الشكيمة في العناد و قلّة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض: إنّ رسولكم لمجنون، بقوله: إن كنتم تعقلون... "[47].

كما يسعى إلى إيضاح الانسجام على مستوى الضمائر في قوله تعالى: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [48]، ملتفتا إلى الدّقائق التي قد يتسائل عنها القارئ الفطن "فإن قلت: لم جمع الضمير في منكم وخفتكم ؟ مع إفراده في تمنّها وعبّدت ؟ قلت: الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، بدليل قوله: ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [49]، وأمّا الامتنان فمنه وحده، وكذلك التّعبيد " [50].

ونلحظ في هذا المقام نظرته الكليّة لقصة سيّدنا موسى عليه السلام في القرآن ككل لا في سورة الشعراء فحسب. وقد تجلّت هذه النظرة في أكثر من موضع من قصص الأنبياء التّي عرضتها السّورة. من ذلك دعاء سيّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [51]، " والإلحاق بالصّالحين: أن يوّفقه لعمل ينتظم به في جملتهم، أو يجمع

بينه وبينهم في الجنّة. ولقد أجابه حيث قال: ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ " [52] وقد وردت هذه الآية في أكثر من موضع من القرآن [53].

كما مثّل جار الله للاختصار والحسن في الآية الكريمة: ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ [54] بما اقتصر عليه من ذكر بداية قصّة موسى عليه السّلام المتمثّلة في الإنذار، ونهايتها وهي التّدمير في قوله عزّ وعلا: ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾[55] موافقة لمقام إبراز التّكذيب فكانت إقامة الحجّة عليهم ببعث رسولين اثنين، ليليها الإهلاك [56]. وقد أشار إلى بسط قصّة الإرسال في غير هذا المحل من القرآن. واستشهد على وجه من وجوه تفسير كلام فرعون في الآية الكريمة: ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [57] المتمثّل في الكفر بآلهته بآية من الأعراف: ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ [58] فقامت مقام الدّليل والشّاهد، إلى غيرها من الأمثلة.

نخلص في نهاية هذا البحث إلى مجموعة من نتائج نحوصلها في النقاط الثلاثة التالية:

- انطلق الزمخشري في كشافه من حيث انتهى الجرجاني مطبّقا لنظريته في النّظم على آي الذكر الحكيم فأسّس لمرحلة هامّة من مراحل التّدليل على الإعجاز، وقراءة النصّ عموما من خلال النّظم المخصوص المتواشج، وهو في ذلك يتّكئ إلى علم محاسن النظم القائم على علمي المعاني والبيان كاشفا عن اللّطائف الأسلوبية.

-إنّ انشغال الزّمخشري بهذه اللّطائف والأسرار في الأسلوب القرآنيّ عناية منه بالمنحى الجماليّ في قراءة النّصّ أعانته على ذلك بصيرة بمواطن الجمال وذوق أدبيّ شديد الحساسيّة. قد تجاوز في هذه القراءة العلاقات الإسناديّة على صعيد الجملة الواحدة، في مظاهر عديدة للتّجاوب والاتّساق من بينها الإجمال ثمّ التفصيل وترتيب المعاني، والتكرار عرضناها فيما سبق. وهو في ذلك متتبّع لمواقع الجمل بعضها من بعض إلى بناء النص من حيث ترتيب معانيه منتقلا من مباحث الفصل والوصل والتقديم والتأخير البلاغية إلى نموّ المعنى وترتيبه.

- تجاوزت قراءة الزمخشري الجملة وارتقت من نظمها إلى نظم النّص. وهذا ما أسفرت عنه نظرته الكليّة، متجليّة في حديثه عن التّرتيب في قصّة إبراهيم عليه السّلام، وطابع التّكرار في قصص الأنبياء، فاستفاد أيّما استفادة من نظم الجملة والجملتين الذي أسّس له الجرجاني ليكشف عن نظم النصّ ونمو المعنى فيه وفق مبدأ التّجاوب والاتّساق على هدي من علم محاسن النّظم. وقد دفع بذلك تهمة التّناقض والاختلاف الموجّهتين للقرآن، ولعلّ هذا الهدف هو ما جعله يتجاوز نظم المعاني في السّورة الواحدة إلى القرآن ككلّ [59].

وفي الختام يتجلّى لكلّ متأمّل علم محاسن النظم وجها من أوجه الإعجاز البلاغي كشف عن اتساق النص وتجاوب معانيه في رؤية جماليّة نافذة مكّنت لقراءة جار الله الزمخشري للنص القرآني عند المفسرين والبلاغيين مّمن جاء بعده إلى عصرنا الحاضر.

هوامش البحث:

[1] -محمد حسنين أبي موسى: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشريّ وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، ط1، د.ت، ص61.

[2] -ينظر: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون:ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408 هـ - 1988 م، ص763.

[3] - أبو القاسم جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ، ج4، ص134.

[4] - ينظر: مصطفى الصّاوي الجويني: منهج الزمخشري في تفسير القرآن، دار المعارف، مصر، ط2، د. ت، ص216.

[5] - ق: 37.

[6] - الزمخشري: الكشاف، ج4، ص134.

[7] - شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط9، د.ت، ص220.

[8] - السريّ: النفيس والرّفيع. ينظر: أبو الفضل محمد بن منظور لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج14، ص378.

[9] - ينظر: الزمخشري: الكشّاف، ج1، ص27، 98، 37،، 196، 335،، 540، ج2، ص347، 536، ج3، ص386، ج4، ص655.

[10] - ينظر: نفسه، ج3، ص395.

[11] - ينظر: الكشّاف، ج1، ص93، ج4، ص268، ج4، ص361، ج1 ص196، ج4 ص52، ج4 ص138، ج4 ص759، ج1 ص540.

[12] - ينظر: أبو بكر عبد القاهر الجرجانيّ: أسرار البلاغة، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني بجدّة، د.ط، د.ت، ص58.

[13] - الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ-2001م، ص70.

[14] - نفسه، ص68.

[15] - الزمخشري: الكشاف، ج1، ص36، 37.

[16] - نفسه، ج1، ص37.

[17] - طه: 37- 39.

[18] - الزمخشري: الكشاف، ج3، ص63.

[19] - ينظر: محمد حسنين أبو موسى: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدّراسات البلاغيّة، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، د. ت، ص194.

[20] - فاطر: من الآية 18.

[21] - الزمخشري: الكشاف، ج3، ص607.

[22] - شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص219.

[23] - الزمخشري: الكشاف، ج3، ص395.

[24] - سورة النمل: الآيات 87-90.

[25] - الزّمخشريّ: الكشّاف، ج3، ص386.

[26] - والشِقشقة: لهاة البعير ولا تكون إلا للعربي من الإبل، وقيل: هو شيء كالرئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج، والجمع الشقاشق، ومنه سمي الخطباء شقاشق، وشبهوا المكثار بالبعير الكثير الهدر.

ينظر: - أبو نصر إسماعيل الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط4، 1407 هـ - 1987 م، ج4، ص1503.

- ابن منظور: اللسان، ج10، ص185.

[27] - الشعراء: 26 - 28.

[28] - الشعراء: 24.

[29] - الزمخشري: الكشّاف، ج3، ص308.

[30] - الشعراء: 132 - 134.
[31] - الزمخشري: الكشاف ج3، ص326.
[32] - الشعراء: 146 - 148.
[33] - هَضُمَ فهو هضيم أي لطيف وضامر. ينظر: أبو منصور محمد الأزهري: تهذيب اللّغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت،ط1، 2001م، ج6، ص66.
[34] - الزمخشري: الكشاف، ج3، ص328.
[35] - الشعراء: 05 - 06.
[36] - الزمخشري: الكشاف , ص299.
[37] - يقع كلام إبراهيم عليه السّلام بين الآيتين 70 وَ 102 من سورة الشعراء.
[38] - الزمخشري: الكشاف، ج3، ص321.
[39] - محمد حسنين أبو موسى: البلاغة القرآنيّة في تفسير الزّمخشريّ، ص14.
[40] - الشعراء: 108، 110. وتكرّرت كذلك في الآيات التالية: 126، 131، 144، 150، 163، 179.
[41] - الزمخشري: الكشاف ج3، ص324.
[42] - الزمخشري: الكشّاف، ج3 , ص334.
[43] - ينظر: نفسه، ج3، ص332.
[44] - الزّمخشريّ: الكشّاف , ج3، ص343.
[45] - الشعراء: 24.
[46] -الشعراء: 28.
[47] - الكشاف , ج3 , ص308.
[48] - الشعراء:21- 22.
[49] - القصص: من الآية 20.
[50] - الكشّاف، ج3 , ص306.
[51] - الشعراء: من الآية 83.
[52] - الزمخشري: الكشاف، ج3, ص320.
[53] - ينظر: - النحل: من الآية 122، البقرة: من الآية 130، العنكبوت: من الآية 27.
[54] - الشعراء: من الآية 13.
[55] -الفرقان: 36.
[56] - ينظر: الكشّاف، ج3، ص302.
[57] - الشعراء: من الآية 19.
[58] - الأعراف: من الآية 127.
[59] - ينظر: مصطفى الصّاوي: منهج الزمخشري، ص103، 168.